صفحات

من العراقات الثقافية



بقلم :
سعادة الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة

ين روسيا ودول الخليج العربية

نظراً لأن روسيا بلاد أوروبية وآسيوية في نفس الوقت فليس عجيباً أن العلاقات بين روسيا من جهة وبين دول مجلس التعاون لها جذور عميقة تتجاوز تحول روسيا القيصرية إلى الاتحاد السوفييتي ومن ثم تفككه إلى دول الكومنولث الروسية المستقلة . ومن جهة أخرى هناك حقيقة تاريخية هي أن روسيا تطلعت دائماً إلى المياه الدافئة في الخليج العربي والمحيط الهندي أولاً ، في سياق التنافس الدولي في المنطقة . وثانياً ، لترويج منتجاتها التجارية فيها . وثالثاً ، لإرضاء عدد كبير من المسلمين في ولاياتها المسلمة والذين كانوا حريصين على تأدية فريضة الحج إلى الديار المقدسة والاتصال بالجاليات المسلمة المجتمعة هناك بهذه المناسبة سنة بعد سنة .

ولا شك أن العلاقات التاريخية بين روسيا ودول مجلس التعاون قديمة واستمرارا لتلك العلاقات فقد أقيمت مراكز الدراسات العربية في الكثير من معاهد الاستشراق . وظهرت طبقة مثقفة بثقافة عربية روسية قدمت الكثير من الدراسات والبحوث ونشرت الكتب ذات القيمة الأدبية والتاريخية . ولعل أقدم من كتب من العرب عن بلاد الصقالبة أو ما يسمى (ببلاد البلغار) في مطلع القرن الرابع الهجري / منتصف القرن العاشر الميلادي هو (أحمد بن فضلان) المتوفى بعد ٩٢٢م . حين أوفده الخليفة العباسي المقتدر بالله كأول دبلوماسي أو سفير إلى تلك البلاد فدون مشاهداته في رحلته ونعتها برسالة ابن فضلان وقد كشفت الكثير عن أحوال تلك الديار التي زارها ، خاصة على أطراف الفولجا ، وقد بعثوا برسول منهم إلى عاصمة الخلافة العباسية يرجون العون ويطلبون أن يرسل لهم من يفقههم بالدين ويعرفهم بشعائر الإسلام . وإذا كان الإسلام قد انتشر في منطقة الفولجا السفلى واعتنق كثير من أبناء دولة قازاغ الإسلام فقد انتشر في وسط منطقة الفولجا (فولتسكايا بلغاريا) وأصبح الديانة الرسمية في عام ٩٢٢م وهو العام الذي وصل فيه السفير ابن فضلان[١] . أما (ابن حوقل) المتوفى عام ٨٨٢م فهو أول من ذكر بأن الأمير (أوليغ نوفكورود) قد استولى على (كييف) ووحدها مع إمارة نوفكورود في الشمال، وبذلك قامت أول دولة روسية موحدة هي دولة (كييف روسي) ومركزها كييف وقد دامت نحو ثلاثة قرون وهدد أميرها القسطنطينية مرارا ، فأضاف بذلك (ابن حوقل) و (ابن فضلان) إضافات للمعرفة التاريخية عن روسيا القيصرية في القرون الوسطى .

أما السائح الروسي (أفاناسي نيكيتين) فقد زار الخليج ووصف هرمز في عام ١٤٧٢م قائلا أنها مستودع كبير للسلع وفيها أناس من مختلف الجنسيات ولكنه شكا من كثرة الضرائب المفروضة على البضائع[٢] . وفي العصر الحديث ظهر الكثير من العلماء العرب ومنهم : محمد عياد الطنطاوي خريج الأزهر منذ عام ١٨٤٠م، وقد كتب وألف ودرس ونظم الشعر ولا زال قبره معروفا في مقبرة فولكوفو الإسلامية بمدينة سان بطرسبرج .

وهناك الكثير من المستشرقين الروس ومنهم (كراتشكوفسكي) الذي كتب عن ابن فضلان في كتابه تاريخ الأدب الجغرافي العربي[٣] وقد قضى كراتشكوفسكي خمسة

وأربعين عاما في دراسة وتدريس الأدب العربي وألف في ذلك أكثر من خمسمائة بحث ومقالة . ويظهر في كتابته حبه للعربية لغة وقوما بعيدا عن التعصب والدس[٤] .

وفي ١٣١٢م اعتنق (خان أوزبك) الدين الإسلامي وكان سبب اعتناقه للإسلام النزاع بين المغول وروسيا . وكان سبب هذا النزاع سياسيا أكثر منه دينيا . واشتهرت بخارى وخيفا المسلمتان بالحرية الدينية وإن كانتا تابعتين لروسيا منذ القرن الثامن عشر . وأصبح عدد المسلمين الروس فيها أحد عشر مليونا ونصف المليون وأغلبهم من أبناء السنة من بين ١٣٠ مليون روسي وذلك حسب إحصاء عام ١٨٩٧م . وكانت روسيا تشترط على المسلمين إطاعة الأوامر الروسية ودفع الضرائب ولهم بعد ذلك ممارسة شعائرهم الدينية . وظهرت طبقة أرستقراطية من مسلمي التتر لعبوا دورا بارزا في تاريخ روسيا السياسي والعسكري والثقافي، حتى أن (بوريس جودونوف) أصبح قيصرا لروسيا وهو مسلم في الفترة من ١٥٩٨ - ١٦٠٥م، بل إن إمارة تسمى (قيصرية قاسموسكو) سكنها التتر المسلمون ولم يحكمها إلا من كان مسلما . وشارك المسلمون الروس في حروبهم ضد بولونيا وحرروا موسكو من الغزاة الكاثوليك علم ١٦١٢م . وقام عالم اسمه (بيوتر بوستنيكوف) بترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الروسية بوصية من بطرس الأكبر . وفي عام ١٧٢٢م نشر أول بحث روسي في الإسلام في كتاب كتبه (ديمتري كانتيمير) وكتب العالم والمؤسس لجامعة موسكو (لوموتوسوف) مؤلفا عن تاريخ وإقليم الإسلام وهو الذي أسس قسم الدراسات الشرقية في الجامعة .

وعندما تولت الإمبراطورة الروسية (كاترين العظمى) الحكم من ١٧٧٢ - ١٧٩٦م اعترفت بالإسلام دينا لبعض الروس وأسست مجلسا تشريعيا لمسلمي (أوفا) كمركز رئيسي لمسلمي القسم الأوروبي لروسيا .

أما الإمبراطور (نيقولا الأول) ١٨٢٥ - ١٨٥٥م فقد صادق شخصيا على تصميم مسجد نموذجي بتبرعات المسلمين ومساعدة الإدارة الروسية . وكان قد فرض على من يخالف الدين أن يضرب بغصن الشجرة لأول مرة وبالعصا للمرة الثانية وبالجلد للمرة الثالثة .

أما (نيقولا الثاني) في (١٨٩٤ - ١٩١٧م) فقد أمر بعقاب من يهين الأديان . وتوالت طباعة القرآن الكريم بالعربية وحافظ المسلمون على إقامة الشعائر الدينية . وبعد استخدام البخار في السفن نشط المسلمون في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في أداء فريضة الحج، وكان عدد (علماء) الجالية الإسلامية يزيد على مائة ألف نسمة في أواخر القرن التاسع عشر ة يترأسهم المفتي الأعظم الذي كان يحمل رتبة جنرال روسي . ومارست أسرة رومانوف تسامحا دينيا تجاه المسلمين وأعفوا العلماء من الضرائب ومن التجنيد . وزاد عدد المساجد فمثلا كان في منطقة (ميرف) عام ١٨٨٥م ثلاثة مساجد وزاد العدد في عام ١٩١١م إلى ٢٣٣ مسجدا . وتحملت روسيا مصاريف محاكم الشريعة كلها أو جزءا منها . وفي حالة وقوع نزاع بين مسلم وغير مسلم كانت تحال القضية إلى محكمة روسية إمبريالية . ونشط المسلمون في التجارة والصناعة والجيش والتعليم، وشاركوا في مجلس البرلمان (الدوما) وظهر منهم النبلاء وهم من الطبقة الممتازة[٥] .

وكتب بعض الحجاج الروس تقارير عن الأحوال الاجتماعية في الحجاز ومن هؤلاء (سليم غري سلطانوف) الذي حج عام ١٨٩٣م والكابتن عبد العزيز (دافلتشين) الذي حج عام ١٨٩٩م وتحدث عن سوء المعاملة التي لقيها الحجاج من الجنود الأتراك حيث كانوا يتعرضون للنهب والسلب وذكر عدم نظافة أم القرى ومدينة الرسول عليه الصلاة والسلام والتي يكثر فيها بيع الرقيق[٦] .

وورد في مذكرة مرفوعة إلى رئاسة قلم تحرير جناب السلطان العثماني عن الخليج العربي مؤرخة في ٢١ شباط ١٣١٣هـ ما يلي :

١ - تعتقد انجلترا أن الدولة العثمانية ليس بإمكانها منع روسيا من احتلال أراضي الخليج .

٢ - أن التجارة الإنجليزية مع الممالك العثمانية في تناقص مستمر في الوقت الذي تتسع فيه وتزداد تجارة روسيا مع البلاد العثمانية الواقعة في حوزة الروس ومنها الخليج العربي .

٣ - يرى بعض المراقبين أن الروس يمكنهم النزول إلى الخليج العربي عن طريق العراق أو إيران للخروج للمحيط الهندي وهنا يتحرك الإنجليز لإنشاء مراكز نفوذ لهم في الخليج العربي .

ولابد من شغل القوات الروسية بحركات تمنع نزولهم في الخليج وهذا ما قدمه كيرزون بضرورة توسيع نفوذ إنجلترا في الخليج(٧) .

وإزاء محاولة الوصول إلى المياه الدافئة في الخليج فقد واجهت روسيا صعوبات من الإنجليز والدولة العثمانية والإمبراطورية الإيرانية من حين لآخر حسب تطور الأمور على الساحة الإقليمية . وفي عام ١٨٨٦م أرسلت روسيا وفدا إلى طهران مع مشروع لمد خط للسكة الحديد من بحر قزوين إلى الخليج العربي . ورجت شائعات أن إيران تنازلت عن جزيرة في الخليج العربي لصالح روسيا . لكن الشاه نفى الخبر بشدة وطمأن بريطانيا بأنه لن يقوم بأي عمل يضر مصالح بريطانيا .

وبالنسبة لمصالح بريطانيا في الخليج العربي أكد اللورد كيرزون في رسالة له في عام ١٩٠١م بأنه يجب أن تسيطر بريطانيا كليا على جنوب إيران والخليج العربي . ورأى كيرزون بأن روسيا تحاول كسب نفوذ سياسي بواسطة الأعمال التجارية ومد خط حديدي وإقامة محطة للفحم في إحدى الجزر الخليجية .

ولاحظ كيرزون بأنه إذا كسبت روسيا ميناء في الخليج العربي وركزت سفنها البحرية فيه فسوف يكون ذلك خطوة لفرض سيطرتها على الخليج وعلى آسيا في النهاية . ولا يمكن لبريطانيا أن تمنع ذلك بواسطة الوصول إلى التفاهم مع روسيا حول مناطق النفوذ للقوتين . فقد ظل الخليج العربي بحيرة إنجليزية لأكثر من مائة عام ويجب أن يبقى كذلك مستقبلا دون تحد من أي قوة أجنبية أخرى(٨) .

ولقد كشفت الوثائق الروسية وما كتبه الرحالة والحجاج الروس عن الكثير من تاريخ المسلمين في روسيا فمنهم من ذكر إحصائيات لعدد سكان الأماكن المقدسة والتي أغفلت ذكرها كتب التاريخ فإن تقرير الكابتن (دافلتشين) الذي كتبه عام ١٨٩٩م حين زار الحجاز ذكر أن عدد سكان مكة المكرمة يتراوح بين ٧٠,٠٠٠ - ٨٠,٠٠٠ نسمة وكان

العرب يشكلون معظم هذا العدد والباقي من جنسيات أخرى ويصف أحوالهم الاجتماعية وصفاتهم البيولوجية وعاداتهم وتقاليدهم والمهن التي يزاولونها وقلة المتعلمين منهم . ثم المواد المستوردة لسد حاجة الحجاج الذين يفدون في كل عام إلى مكة المكرمة والعملة المتداولة . (ويذكر رولتشين أن عدد المسلمين في تركستان رسميا يصل إلى ١٩ مليون نسمة)[٩] .

ولقد زودتنا الوثائق الروسية بمعلومات تلقي الضوء على الأحوال الاجتماعية والأمنية في الحجاز في عهد الأشراف والعثمانيين مما يؤكد لنا سبب ترحيب أهالي الأماكن المقدسة في الحجاز بالملك عبد العزيز الذي خلصهم من نير العثمانيين والأشراف . فساد الأمن والعدالة الاجتماعية والنظام في عهده وزاد الاهتمام بالحرمين الشريفين خاصة والجزيرة العربية عامة . وهذا من أسباب اعتراف روسيا كأول دولة بالحكم السعودي للحجاز ثم تلتها سائر الدول الأخرى .

ومن دراسة التقارير التي كتبها الروس عرفنا (عدد الحجاج) في كل عام ففي عام ١٨٩٨م ذكر دافلتشين أن عدد الحجاج بلغ حوالي ٨٠٠٠ نسمة ويشكل العرب نحو ثلاثة أخماس هذا العدد . ومعظم سكان مكة من الوافدين الذين استوطنوها . وأهل مكة كرماء ويستضيفون الحجاج . وقلما تجد منهم من يعرف القراءة والكتابة . ويعمل أكثرهم في خدمة الحجاج كمرشدين ومطوفين ومعظمهم على مذهب الشافعي والمالكي .

ويستطرد دافلتشين بقوله وفي عام ١٨٩٨م قدم إلى مكة ٤٥٠ حاجا روسيا أغلبهم من كبار السن ومعظمهم من الأغنياء والملاكين ورجال الدين وكانت رغبتهم أن ينالوا احترام الناس بحملهم لقب (الحاج) وتدوم الرحلة نحو سنتين لصعوبة المواصلات .

وحين كتب الحاج (سليم سلطانوف) عن رحلته للحج عام ١٨٩٣م بحرا ثم وصوله إلى المدينة المنورة وصف المسجد النبوي الشريف ووصف بيوتها وشوارعها . ثم ذكر أن مساحة مكة حوالي أربعة كيلومترات مربعة تحيطها الجبال ووصف بيوتها وأسواقها وسلعها واعتمادهم على التجارة . ويذكر عن المدينة ومكة والطائف أن فيها مكاتب للبريد وصيدليات ومستشفيات وثكنات لحوالي ٢٠٠٠ جندي ومطبعة وسوقا للكتب .

والمواصلات هي الدواب والعربات . ثم يذكر أسلوب الحياة اليومية والأعياد والحفلات . وأخيرا فإن الحج ساعد إلى إحياء شعلة الإسلام في الإمبراطورية الروسية . وكان الحاج عند عودته يلقى تقديرا لدى مسلمي الروس ويصبح له احترام وإجلال . ويجتمع حوله الناس يروي لهم قصص رحلة الحج(١٠) .

والجدير بالذكر أن بعض سكان بلاد القوقاز والبلقان الذين اعتنقوا الإسلام وجدوا لأنفسهم أصولا عربية (كالشركس والشيشان والألبان والبشاتقة) وقد ذكر المسعودي الذي عاش في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي في كتابه "مروج الذهب" هذه الظاهرة(١١) .

وعلى الرغم من أن الشيشان اعتنقوا الإسلام في القرنين ١٦ و١٧ فقد وجدت صيغة مكتوبة تشير إلى أن أصلهم عربي ويعود لثلاثة إخوة هم عبد خان، ورشيد خان، وحمزات خان أولاد سعيد علي شامي الذي عاش وتوفى في الشام . وقد نزحوا في ٦٣هـ/٦٨٥م من الشام واستقر أحد أحفاد الإخوة الثلاثة وهو شام خان في موطن الشيشان الحالي عام ٢١٣هـ . وإن كانت هذه الرواية ليس لها دليل تاريخي ثابت(١٢) .

وكانت الدولة العثمانية راعية المسلمين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على علاقة طيبة بروسيا . ولما طلبت روسيا من السلطان أن تكون حامية المواطنين المسيحيين في الإمبراطورية العثمانية لا في القدس وحدها . رفض السلطان الطلب ونشبت الحرب فتدخلت بريطانيا وفرنسا إلى جانب العثمانيين فانهزمت روسيا . ثم تغيرت سياسة أوروبا ضد العثمانيين لصالح روسيا حين رفض مدحت باشا إعطاء مرتبة خاصة لغير المسلمين مما أدى إلى مطالبة الأوروبيين بتحسين أحوال المسيحيين من رعايا الدولة العثمانية فنشبت حرب ١٨٧٨م مع روسيا وكانت نتيجتها أن احتلت روسيا صوفيا وكل بلغاريا وأدرنة(١٣) .

وهناك منطقة تسمى (إدجاريا) تتمتع بالحكم الذاتي وتقع على ساحل البحر الأسود غرب جورجيا التي كانت تسمى بلاد الكرج وقد ذكرها مؤرخو العرب الأوائل كالطبري وابن حوقل والمسعودي والأصطخري وابن الأثير وياقوت وآخرون . وسكانها من

المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام في القرون الأولى من انتشاره وقد عثر على كتابات ونقوش عربية تعود إلى صدر الإسلام . وألف بعض مسلمي شمال القوقاز كتبا باللغة العربية واليوم تنتشر مراكز وكليات الاستشراق في أكاديمية العلوم في بلاد الكرج أو جورجيا التي حوت مكتباتها المخطوطات العربية في أكاديمية العلوم وفي معهد آسيا وأفريقيا وفي هذه الأكاديمية تدرس اللغة العربية والتاريخ الإسلامي وبرز الكثير من المستشرقين فيها وقد ألفوا عددا من الكتب التي تعالج قضايا العالم العربي .

وينتشر المسلمون في أوزبكستان وبخارى التي يتكلم بعض سكانها اللغة العربية ويؤكدون على أصلهم العربي وعددهم نحو ثلاثة آلاف نسمة . وهناك قرى تقع في الجنوب من بلاد الكرج مثل جينا وقماشي وسكانهما عرب ولغتهم العربية وعددهم نحو ألف وخمسمائة نسمة .

واليوم تحتل المخطوطات العربية في مكتبة الكلية الشرقية في جامعة سان بطرسبرج مكانة بارزة ويبلغ عددها نحو ٩٠٠ مخطوطة منها مجموعات ترتفع بعددها ليصبح ١٤٠٠ مخطوط . وأقدم مخطوط عربي يعود للقرن الثالث عشر الميلادي وفيها مخطوطات نادرة وفريدة مفسرة باللغة البيلوروسية وبحرف عربي وقاموس منسوخ في القرن السادس عشر . هذه المكتبة تأسست منذ ١٨٠٤م في الكلية الشرقية للغات والتاريخ وكان أول مدرس فيها (فرانس سلفستر ديلستي) وأول لغة هي اللغة العربية بالنسبة للغات الشرقية[١٤] . هذا إلى جانب معاهد الاستشراق الروسية في موسكو ومدن أخرى من روسيا .

ويحدثنا التاريخ أن العرب نشروا الإسلام في روسيا ففتحوا آسيا الوسطى في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي وبعد قرن انتشر الإسلام في بلاد ما وراء القوقاز وهناك كان للعلماء كبير الأثر في تمسك المسلمين بعقيدتهم، ثم تدهورت أحوالهم في القرن السادس عشر عندما سقطت خانات قازان وأستراخان في يدي إيفان الرابع الملقب الرهيب . وبعد قرنين سقطت طشقند وسمرقند وخوقند وأصبحت تحت حكم الروس .

وعدد المسلمين في روسيا يبلغ نحو عشرين مليونا ويتوزعون على النحو التالي : ٦٠٪ من مجموع سكان آسيا الوسطى، و٢٥٪ من السكان في القسم الأوروبي وسيبيريا

و١٥٪ من سكان ما وراء القوقاز وشمالها خاصة في أذربيجان . كما يوجد مسلمون من أصل صيني هاجروا إلى روسيا هربا من الاضطهاد الصيني للمسلمين في أواخر القرن التاسع عشر . ورغم ما كان يلاقيه المسلمون من اضطهاد إلا أنهم بنوا المساجد فأصبح عددها في الإمبراطورية ٢٦ ألف مسجد في أوائل القرن العشرين عدا مساجد خيفا وبخارى المستقلتين عن الحكم الروسي . وفي جمهورية شيشينز ٢٦٧٥ مسجدا عام ١٩٣٠م . وفي تركمانستان ٤٨١ مسجدا عام ١٩١١م . أما عدد المساجد في الاتحاد السوفييتي بعد عام ١٩١٧م فلا يزيد على ٤٥٠ مسجدا .

وإلى جانب المساجد توجد مدارس دينية عددها نحو ٢٤ ألف مدرسة دينية في جميع أنحاء الإمبراطورية الروسية وفيها يتعلمون مبادئ اللغة العربية التي كان لها مكانة خاصة في نفوس المسلمين الروس لأنها لغة القرآن الكريم . ويحافظ المسلمون على عاداتهم، ويدفنون موتاهم ويختنون أبناءهم وفق الشريعة الإسلامية . وتقام ولائمهم في المناسبات الدينية وخاصة في شهر رمضان المبارك[١٥] .

أما تركستان الإسلامية فقد تقاسمتها روسيا والصين وكانت ولا تزال مهد الحضارة والثقافة ومؤلفات أبنائها متداولة في الجامعات التي لا تخلو أي مكتبة منها من كتب الصحاح البخاري ومسلم والترمزي والنسائي أو من كتب الفارابي والبيروني والخوارزمي ومئات غيرهم عبر التاريخ . ورغم تعرض المسلمين للاضطهاد إلا أنهم حافظوا على ديانتهم وتمسكوا بعقيدتهم ومن تركستان انطلق السلاجقة والعثمانيون وملوك المغول العظام الذين حكموا شبه القارة الهندية ولا زالت آثار حضارتهم شاهدة عليهم .

ملحق

تقرير للشهبندر العثماني بلندن

رقم البحث : ٣٩٢٩

نوع الوثيقة : أوراق ييلديز

رقم الأوراق : ٢٥٥

رقم القسم : ١٤

رقم الظرف : ١٢٦

رقم الكارتون : ٨

تاريخ الوثيقة : ٢١ فبراير (شباط) ١٣١٣ ر

محل وجود الوثيقة : الأرشيف العثماني باستانبول

الوثيقة عبارة عن لائحة في خليج البصرة والعلاقات بين الحكومة السنية (الدولة العثمانية) وإنجلترا قدمها إلى السلطان وكيل شهبندر لندن وجاءت في ١٣ صفحة كبيرة استهلها ببيان السبب الذي حمله على تقديمها إلى السلطان وذكر أنه عرض في لائحته هذه ما اطلع عليه من مواد وخصومات تتعلق بالآمال الأجنبية في خليج البصرة والأماكن المجاورة لها مع بعض مطالعاته المتواضعة حول هذه المسائل، وقال أن خليج البصرة واقع في أنسب محل مبادلة لتجارة قسم كبير من قارتي آسيا وأفريقيا، والقسم الهام من الخليج خاضع للحكم العثماني، والأقسام الباقية له مسكونة من قبل المسلمين أيضا والجهود التي ستبذل في تحسين أوضاع المنطقة لابد وأن تخدم انتشار نفوذ الخلافة المقدسة العثمانية وتوسيع دائرة حكمها وسيادتها، وأشار إلى أن الإجراءات الإصلاحية المتخذة حتى الآن في المنطقة ليست بوجه من الوجوه متناسبة مع مقام الخلافة واحتياجات السلطنة السنية، كما أشار إلى أن الإنجليز هم أكثر الملل الإفرنجية قياما بأبحاث فنية وتجارية وسياسية في العراق والفرات ونواحي البصرة وقال إن إقامتهم في بغداد موظفا سياسيا بدلا من تعيين قنصل فيها كما فعلوا ذلك في الهند قبل استيلائهم عليها، وتعيينهم مفرزة عسكرية إنجليزية بدعوى حراسته، ونصب هذا الموظف

السياسي من قبل الوالي الإنجليزي في الهند لا من قبل الوزارة الخارجية البريطانية كما في تعيين القناصل، كل ذلك دلائل واضحة تكشف عن نوايا الإنجليز العدوانية في المنطقة . ومن المعلوم أن الإنجليز يخططون الاستيلاء على عربستان ونواحي البصرة منذ أمد بعيد، وقال أن السياسة التي تبناها الإنجليز إزاء الدولة العلية تقوم على أساس العمل من أجل القضاء عليها وزوالها، لا من أجل الحفاظ عليها وبقائها، واستدل على ذلك بالأمور التالية :

أولا - أن إنجلترا واثقة ومتيقنة من أن الدولة العثمانية لن تستطيع الوقوف في وجه الأطماع التوسعية الروسية .

ثانيا - أن التجارة الإنجليزية مع الممالك العثمانية في انخفاض مستمر بالنسبة للتجارة الروسية مع الممالك التي احتلها الروس من الدولة العلية، وقد أصبح العثمانيون يعرفون في العالم اليوم بالبطالة، والعطالة، والجهل في المعارف التجارية وطرقها ووسائلها فلا يستطيعون تنمية مصادرهم التجارية وتأمين أسواق لها في الخارج .

ثالثا - يعتقد الإنجليز جميعهم بصورة عامة زوال كل مانع كان يقف في وجه الروس لتحقيق أطماعهم في احتلال عاصمة السلطنة العثمانية، وذلك لأن البحر الأسود أصبح في حكم بحيرة روسية، والأسطول العثماني أصبح في حكم العدم . كما أن المعارضة الإنجليزية لاحتلال الروس العاصمة العثمانية استنبول فقدت خلال الأيام الأخيرة شيئا كثيرا من شدتها وقوتها ولاسيما بعد احتلالهم مصر القاهرة، وتصدي المتعصبون الإنجليز لقلب الحقائق الدامغة المتعلقة بفساد الأرمن في الممالك العثمانية وطغيانهم فيها ويحاولون إبرازها كمجازر ومظالم تركية ضد الأرمن ويعلنون عن دعمهم وتأييدهم لاحتلال الروس الممالك العثمانية كسبيل لرفع هذه المظالم عن الأرمن، وأن الكنيسة البريطانية ترغب من غير شك في أن تعود "أياصوفيا" إلى سابق عهدها معبدا للنصارى . وقال لورد روزبري في خطاب له ألقاه في العام الماضي : " **أن استنبول كانت عاصمة لنصارى الشرق، وأدعو الله أن يعيدها إلى سابق عهدها** ." وأعرب سائح إنجليزي عن انطباعاته عن زيارته لاستنبول عاصمة الدولة العثمانية بهذه الكلمات المسمومة : "**إن مشاهدة ما في هذه المدينة التاريخية من فوضى ووساخة وخراب تكفي وحدها لملء صدر الإنسان بمشاعر**

البغض والاستنكار إزاء الأتراك المحرومين عن كل استعداد لتقبل الحضارة والمدنية، وأن هذا البغض وحده سبب كاف ليتمنى الإنسان زوال السلطان التركي وحكومته عنها عن قريب .»

رابعا - الاحتلال الروسي للممالك العثمانية يجر على روسيا غوائل عظيمة تضعف من شأنها وقوتها في مواقع الهند، لأن الأهالي الإسلامية المغلوبة على أمرها لابد وأن تثور ضد هذا الاحتلال، والثورة عليه وإن لم تكن ناجحة في تحقيق أهدافها فإنها تسبب متاعب ومشاغل كبيرة للروس وتلهيهم وتكسر من شوكتهم على حدود الهند .

خامسا - يرى الإنجليز انتشار نفوذ الخلافة الإسلامية بين المسلمين أمرا يتعارض مع مصالحهم المستقبلة، ومن أجل ذلك يعملون بكل وسيلة لكسر وإضعاف هذا النفوذ الذي يتمتع به آل بني عثمان، ويغتنمون كل فرصة لإقامة حملات دعائية معادية لهم في صحفهم ومجلاتهم تحت عنوان **«شناعات الإدارة السيئة للحكومة السنية»** وتحت ستار هذه الدعايات المغرضة يستولون على المسلمين بسبب ضعفهم وغفلتهم، وكلما استولوا على بلد إسلامي أطلقوا شعاراتهم الزائفة من أنهم ينشرون الحضارة المسيحية في بلد متوحش ويعملون من أجل رفع مستواه بإلغاء العبودية المنافية للمثل الإنسانية، وفتح منابع جديدة للكسب والربح أمام التجارة الدولية تستفيد منها بحرية تامة، وبذلك ينالون العطف والتأييد من العالم المسيحي .

سادسا - يدعي الإنجليز أن للأرمن وطنا قوميا يئن الآن تحت الاحتلال التركي الذي يذيقهم الويلات ويحرمهم من حقهم الطبيعي في الحرية والاستقلال ويتطلعون إلى روسيا من هذه الناحية كعناية ربانية لقربها من أرمنستان وقدرتها على تخليص الأرمن من ظلم الأتراك واضطهادهم .

سابعا - يرى الإنجليز أن من واجبهم الإسراع والتعجيل في تقوية نفوذهم ومراكزهم في سواحل عربستان وسائر جهات الخليج قبل أن يتمكن الروس من النزول في خليج البصرة عن طريق عجمستان (إيران) ويجدوا لهم منفذا إلى المحيط الهندي من هناك، حيث أن ذلك من توقعات أرباب التدقيق (المراقبين الدوليين) .

وأكد الشهبندر العثماني بلندن أن هذه الأسباب التي ذكرها آنفا تدل دلالة واضحة على أن الإنجليز إنما يعملون من أجل زوال الدولة العثمانية وانقراضها لا من أجل بقائها واستمرارها، وقد أعربوا عن نواياهم العدوانية هذه مرارا وعن تصميمهم على عدم السماح للنفوذ السلطاني بتخطي حدود لحسا نحو عمان واعتبارهم كل محاولة عثمانية في سبيل ذلك اعتداء سافرا على استقلال الإمارات العربية من قبل الحكومة السنية العدو اللدود لحرية الأقوام . ثم تطرق صاحب اللائحة إلى الحديث عما يجب عمله لتقوية المركز العثماني في خليج البصرة، والتصدي للمنافسة الإنجليزية العدوانية في المنطقة، واقترح اتخاذ الخطوات التالية :

١ - يتبع الإنجليز سياسة تنشيط التجارة في البلد الذي يحكمونه بتسهيل الأمور المتعلقة بالتجارة وترغيب الناس فيها وحثهم عليها، فعلى الحكومة السنية تبني هذه السياسة أيضا باتخاذ جميع الإجراءات والتدابير اللازمة التي من شأنها تنمية التجارة والتي تضمن للناس جميع حقوقهم وتوفر لهم الأمن والحماية من عبث العابثين وتقدم لهم ما يحتاجونه من مساعدات وتسهيلات، ولن تفلح دولة إذا كان مواطنوها فقراء ينهشهم الجوع والحرمان .

٢ - القيام بإصلاح الجهاز الإداري في هذه الأماكن النائية عن مركز الخلافة، وذلك لأن الذين يرغبون في العمل فيها هم بصورة عامة من ذوي النفوس المريضة والخبيثة لبعدها عن المركز وتمكنهم فيها من النهب والسرقة . والإنجليز يستغلون أي خطأ مهما كان تافها من أي موظف عثماني في المنطقة ويتخذونه سلاحا يهاجمون به الدولة العثمانية ويشيعون في الناس أنهم إنما يعملون من أجل تخليصهم من ظلم الأتراك وتعسفهم ولكي ينالوا حقهم في الحرية والسعادة الإنسانية، ويقولون إذا كانت الحكومة العثمانية على هذا المنوال من الظلم والتعسف فواجبهم الإنساني والحضاري يحتم عليهم العمل من أجل تحريرهم وتخليصهم من الأتراك الظالمين المعتدين ولاسيما النصارى من رعايا الدولة العلية يجب تخليصهم من براثن هذه الإدارة البغيضة . ويقول صاحب اللائحة أن المسلمين الغافلين كانوا يرون الإنجليز من محبي الإسلام والأصدقاء الأوفياء لهم لعلهم يفيقون إلى رشدهم، ويتنبهون من غفلتهم هذه ليدركوا تلك الحقيقة التي

خفيت على السذج من الناس من أن الإنجليز ليسوا إلا كارثة عظيمة أصيب بها المسلمون في أرضهم ودينهم .

٣ - إذا استقام شأن الخلافة الإسلامية وقوي نفوذها في المنطقة فيمكن إقناع إمارة عمان إلى الالتحاق بها والانضمام تخت لوائها، وليس من الصعب أبدا إقناع أذكياء العرب إلى أن الالتحاق بدولة الخلافة الإسلامية خير من الرضوخ للحكم النصراني للإنجليز، وما من مسلم يفضل أن ترفرف في سماء بلده راية غير إسلامية . ويقول صاحب اللائحة أن المستر كورزون يشيع في الناس أن الحفاظ على أمن المنطقة أمر متوقف على القوات البحرية الإنجليزية، وأن لصوص البحر (القراصنة) في سواحل عمان التجأوا إلى السواحل التي يحكمها العثمانيون من الخليج حيث أن الموظفين العثمانيين يأوونهم ويتغاضون عن نشاطاتهم اللصوصية . وأشار صاحب اللائحة إلى أن القيام بإصلاح الجهاز الإداري في المنطقة قد يفند هذه المزاعم للإنجليز .

٤ - تقوية الأسطول العثماني في الخليج لرد القراصنة عن السواحل العثمانية أولا ورفع معنويات المسلمين في الاعتماد على قوتهم البحرية فيه ثانيا .

٥ - تشغيل عدد كاف من السفن التجارية للنقل النهري في المنطقة وقطع الطريق على الشركات الإنجليزية العاملة في هذا المضمار .

٦ - توصيل الخط الحديدي الأناضولي إلى بغداد والبصرة، حيث أن هذا الخط الحديدي إذا امتد من حيدر باشا باستنبول إلى البصرة أصبح ممرا رئيسيا لجنوب آسيا وجزر البحر الهندي وبذلك تزيد الأهمية التجارية لخليج البصرة زيادة تفوق كل توقع وتقدير . وختم الشهبندر العثماني بلندن لائحته متمنيا أن يتم اتخاذ هذه الخطوات والتدابير قبل فوات الأوان .

الشهبندر خليل خالد

الهوامش

١ – د. أرابوف . نخبة المسلمين في روسيا الإمبريالية ص ١ .

٢ – الموسوعة الإسلامية . الطبعة الإنجليزية، ليدن ١٩٦٥م، صفحة ٥٨٤، خويني ذاتري موريا . موسكو، ١٩٥٨م – ٢١ .

٣ – كراتشكوفسكي . تاريخ الأدب الجغرافي عند العرب، طبع عام ١٩٥٧م، القاهرة . ص ١٨٦ – ١٨٧ والزركلي . الإعلام . جـ٢ . ص ١٩٥ و ١٩٦ . طبع بيروت ١٩٨٠، الطبعة الخامسة .

٤ – نجدت فتحي صفوت . العرب في الاتحاد السوفييتي . طبع بغداد ١٩٨٤م . ط١ . ص ١١ – ٢٩ .

٥ – حكمت أسرة رومانوف منذ عام ١٧١٣ – ١٩١٧ / بحث الدكتور أرابوف .

٦ – جورج مرسكي . تقارير عن الحج للكابتن دافلتشين وسلطانوف .

٧ – أوراق قصر يلدز رقم ٢٥٥ قسم ١٤ رقم الملف ١٢٦ تسلسل ٢١٧٠ من وكيل السفارة العثمانية في لندن (خليل خالد) . تعريب أحمد العناني وثائق التاريخ القطري جـ ٢ تأليف سالدانها . من الوثائق البريطانية والعثمانية ١٨٦٨ – ١٩٤٩م من ١٣٤ – ١٤٧ .

٨ – سالدانها، التنافس الدولي والسياسة البريطانية ١٨٧٢ – ١٩٠٥م، ص ١ و ٤٠ و ٤٤ .

٩ – رزقان المترجم ص ١٥ .

١٠ – جورج مرسكي . تقرير للكابتن دافلتشين حول سفره للحجاز عام ١٨٩٩ ومذكرات الحاج سالم غيري سلطانوف ١٨٩٣ .

١١ – محمد الأرناؤوط . الأصول العربية لعدة الشعوب المسلمة في أوروبا . مجلة المنارة المجلد ٢ العدد ٩٩٧/١ عمان . الأردن .

١٢ – ن.م.س. ص ٢١ و ٦٦ .

١٣ – بيتروسيان . الإمبراطورية العثمانية وروسيا من ١٨٠٠ – ١٩٠٠م . والوثيقة العدد ١٦ ص ٨٢ – ١١٥ .

١٤ – الدكتور علي أباحسين . مشاهدات ومذكرات شخصية عام ١٩٩٧م .

١٥ – شيرين أكينار . المسلمون في الاتحاد السوفييتي . صوت تركستان الشرقية العدد ٣ سبتمبر